

تطبيق مخطط جاكسون اللغوي الاتصالي على شفرة الطقوس - عينة من طقوس الميلاد في المجتمع القبائلي أنموذجا -

أ. مداني إيمان

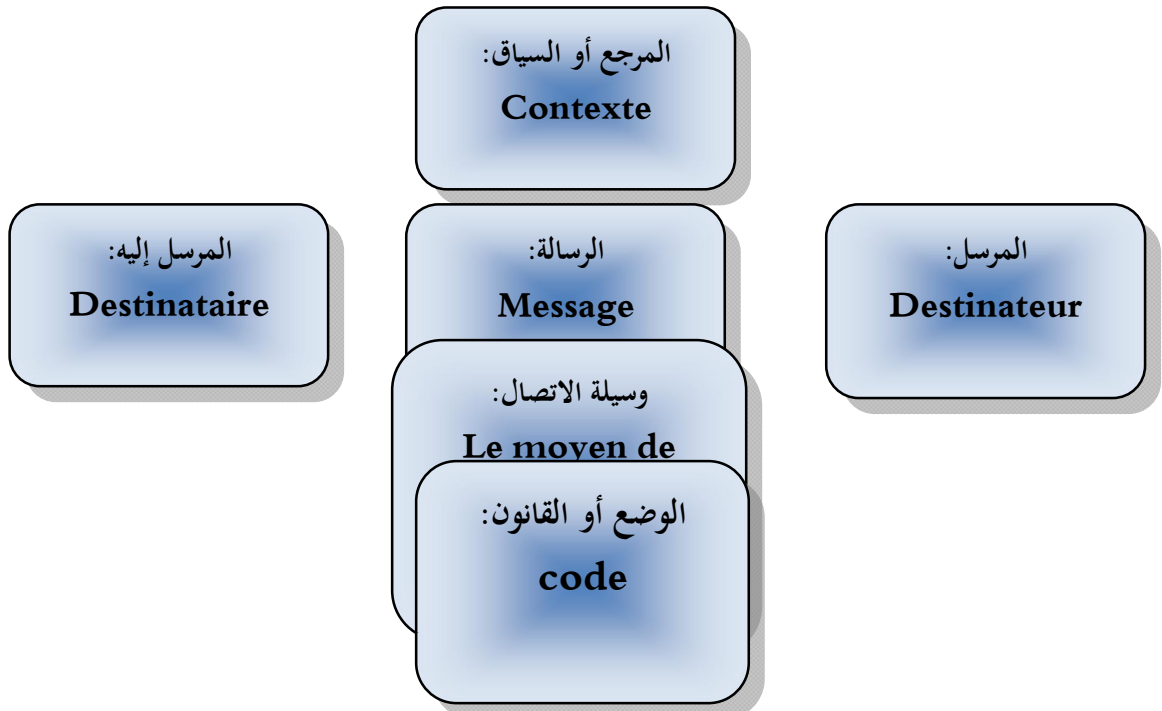
جامعة الجزائر -3-

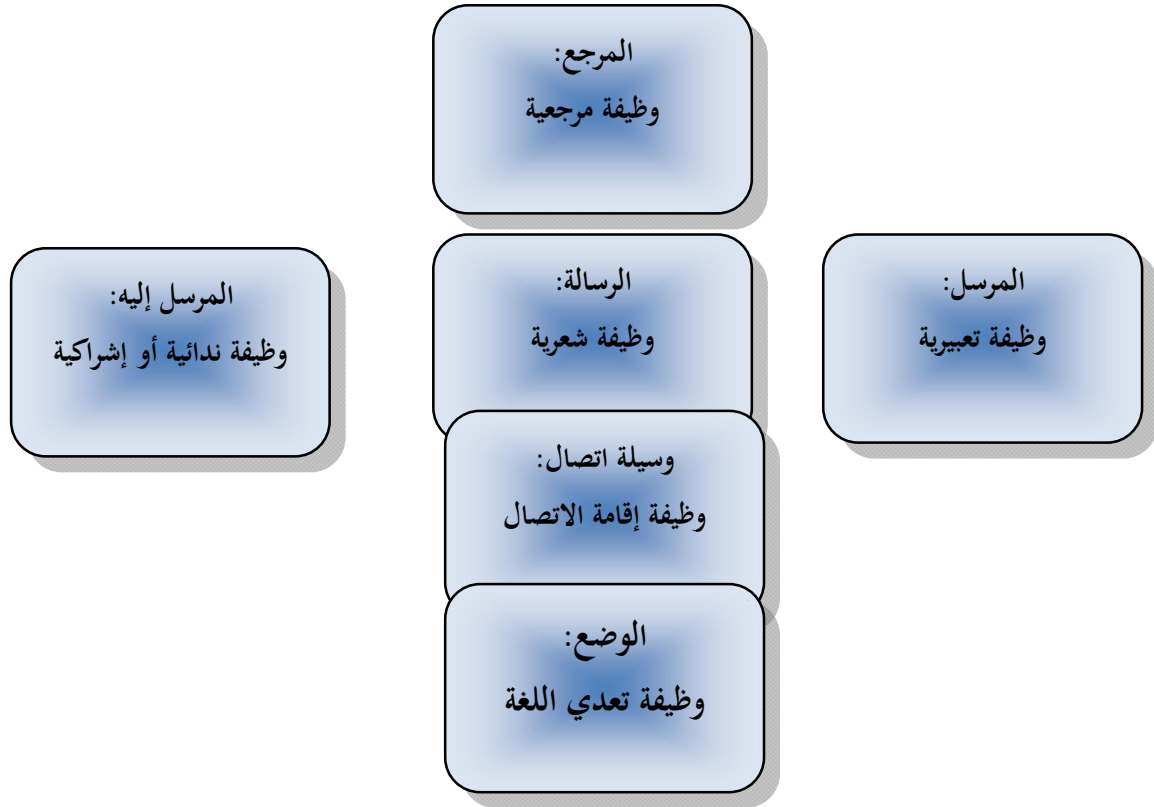
من النماذج اللغوية التي ارتقت إلى غاية تطبيقها في تحليل واستنتاج مضامين الأنساق غير اللفظية ودلالاتها، نجد مخطط جاكسون الاتصالي. حيث يعد من أهم ما جاء به هذا الباحث اللساني الروسي، نظرية وظائف اللغة الست، التي استلهمها من نظرية الاتصال التي ظهرت لأول مرة سنة 1948، ومفادها أن عملية الاتصال تتطلب ستة عناصر أساسية: المرسل، المتلقي، قناة الاتصال، الرسالة، شفرة الاتصال، المرجع.¹ من هنا، اعتبر أن اللغة تقوم بست وظائف مختلفة:

« لكي يرسل المتكلم مرسلته فانه يستحضر قانونا أو سننا code، يفترض في متقبله الغائب أو الحاضر، أن هذا القانون المشترك متبادل بينهما، والتبليغ يشترط قناة فيزيائية: صوت، صفحة مكتوبة، حركة... تعمل على ربط الاتصال.»²

بمعنى: يتولى المرسل إرسال رسالة إلى المستقبل أو المتلقي، وحتى تكون هاته الرسالة إجرائية أو عملية فإنه يتوجب أن تتم في إطار سياق معين، وفي خضم وضع مشترك بين المرسل والمتلقي، أي بين واضح الرموز ومفككها، وأخيرا تتطلب الرسالة قناة أو وسيلة اتصال تمر من خلالها، تحقق الربط بين طرفي الاتصال.³

وتبعا للمخطط الجاكسوني، فان هذه العناصر الستة تعمل وتشارك كلها وفي آن واحد في أية عملية تواصلية، ترسم عادة على النحو التالي:





إذن، إذا كان الاتصال يهدف إلى توضيح موقف المرسل نفسه إزاء الرسالة اللغوية، فهذه تعرف ب: **الوظيفة الانفعالية.**

وإذا كان الهدف من الاتصال التأثير على المتلقي، فهذه تعرف ب: **الوظيفة الندائية أو الإشراكية:** وهي الوظيفة التي تركز على المتلقي أو المستقبل، ومن ثم فهي تربط بين الرسالة وهذا المتلقي، تحاول إشراكه في مضمون الرسالة، تحسسه بأنه معني بكل تفاصيل العملية الاتصالية. بمعنى أنها تركز وتهتم بالمتلقي الذي يوجه إليه الخطاب عن قصد أو غير قصد.

وإذا تعلق الأمر بالنظر في صلاحية القناة أو بنية المتلقي في إقامة الاتصال أو تقوية الصلات الاجتماعية، **كعبارات التحية، الترحيب، والمجاملة، وتبادل المشاعر، أو كقولنا "آلو" للإجابة على الهاتف، فنحن بصدد:** **وظيفة التنبيه أو إقامة الاتصال:** تركز على قناة الاتصال، وتمثل العلاقة بين المرسل وقناة الاتصال، مهمتها التأكد من سير الاتصال، ونقل الرسالة، وكذا التأكد من إمكانية تحويل المتلقي إلى مرسل من خلال الربط بين الطرفين.

وإذا كان الغرض من الرسالة تطوير شكلها بالذات، فهذه تعد: **وظيفة إنشائية، شعرية أو فنية:** وهي الوظيفة التي تركز على الرسالة في حد ذاتها، فهي إذن تربط بين الرسالة وموضوعها من الجانب الجمالي.

وإذا كان الهدف من الرسالة توضيح شفرة الاتصال، أو شرح بعض المفردات، فنحن بصدد:

وظيفة واصفة للغة أو تعدي اللغة، ما وراء اللغة: وهي التي تركز على الوضع و تؤكد ضرورة أن تكون هناك قيم ثقافية مشتركة بين المرسل والمتلقي، تسهل من عملية إرسال الرسالة وتأويلها. وأخيرا، إذا كان الاتصال يستهدف المرجع بالذات، فنحن بصدد الحديث: الوظيفة المرجعية أو السياقية: وهي الوظيفة التي تركز على موضوع الاتصال، وتربط العلاقة بين الرسالة والموضوع الذي تحيل إليه. (السياق المرجعي)⁶

وقد كان لهذه النظرية تأثير عميق على معظم اللسانيين و بعض الفروع العلمية الأخرى، لأنها نظرية أقيمت على مبادئ علمية دقيقة لوصف كافة استخدامات اللغة وضبطها بطريقة موضوعية.⁷

تطبيق مخطط جاكبسون اللغوي الاتصالي على شفرة الطقوس:

- عينة من طقوس الميلاد في المجتمع القبائلي أنموذجا-

سنحاول من خلال هذا النموذج الاتصالي التحليل الدلالي لمختلف الرموز و الدلالات التي تنطوي عليها بعض طقوس الميلاد المعتمدة كمفردات بحث، ضمن المجتمع القبائلي.

الميلاد وطقوسه: -Thalalith-

يلاحظ أن للخصوبة قيمة اجتماعية مهمة في المجتمع القبائلي، تؤدي إلى تقديس الإنجاب.⁸ في هذا الإطار، تكون النساء القبائليات جد حذرات من بعضهن، عندما تكون إحداهن على وشك الولادة. لذلك تتخذ المرأة القبائلية الحبل، احتياطاتها الكاملة عندما تكون على وشك الوضع.

في هذا الصدد، تقوم هذه الأخيرة عندما يقرب وقت وضعها لمولودها، باستدعاء والدتها أو صديقة لها لأجل الاعتناء بها، حيث حسب اعتقادهن أن وجود شخص ذو نية سيئة قد يتسبب لها في ضرر كبير. إذ غالبا ما يتردد عندهن الخوف من استغلال لحظة الولادة في القيام بالسحر.

ومن أشهر الطقوس السحرية المعروفة في المجتمع القبائلي في مثل هذه المناسبة، أن يقوم شخص حاضر في الولادة باختلاس جزء من المشيمة، أين يقوم بشويها، ودقها وطحنها ليتحصل على محصول بودرة، لأجل وضعها في الكسكس الذي يحضر للزوج. تضعه، وهي تردد بعض التعويذات. وفي اعتقادهن، أن الزوج حالما ينتهي من أكل الكسكس يصبح منزعج ومتقزز من زوجته، وتتولد لديه الرغبة في تركها للأبد.

في السياق نفسه، عندما تبدأ آلام النفاس لدى المرأة الحامل يتم وضع خنجر "Poignard" في إناء صغير، وتتم عملية إدارته حتى تتوقف وتنقطع الآلام.⁹

فور اجتماع النساء المسنات حول المرأة التي ستضع المولود، تعرفن جنس المولود وتقوم واحدة منهن بعملية قطع الحبل السري،* حيث تعلن ذلك بصيحات مرتفعة وإيقاعية.

على وجه الخصوص حينما يكون المولود ذكرا. عقب ذلك يجتمع رجال القرية الذين يشرعون في إطلاق طلقات نارية تتصاحب وزغاريد النسوة. ثم يحضر والدا الزوجين ليقدم لهما الهدايا، ويهنئ هذين الزوجين. هذه الهدايا عادة ما تكون من الطبيعة، غير أن العرف يجيز أيضا تقديم وإعطاء المال.

هذا ويوضع بكل كبرياء على جبين المرأة حلية بشكل دائري تسمى "ثافزيمث"، التي تعلن لكل على أنها أعطت مدافعا للقرية. غير أن عليها نزعه لاحقا، إذا وضعت في الولادة اللاحقة بنتا.

والد الطفل يجب عليه أن يدفع عليه أن يدفع خلال فترة عيد الفطر، العدة **aâda**. الذي تختلف قيمته حسب غنى القرية، والذي يرتفع لإظهار كبريائه الذكوري الأبوي.

في نهاية الثلاثة الأيام من وضعها للطفل، تقوم الأم بإعادة وضع حزامها. ثم تقمن نساء العائلة وكذا القرية جمعا بتقديم بعض الأمور البسيطة والمتواضعة كالبيض¹⁰. وكذا مساعدتها.

من جهة أخرى، و تبعا لمعتقد شعبي شائع عند النسوة القبائليات، الطفل مخلوق من قبل الملائكة استجابة لأوامر الإله. فيما يخص الذكر يتم بهمة أكبر، في حين أن الفتاة يكون بكتمان وخاضع للأسف. عندما تأتي لحظة رسم ملامح الطفل، الملاك يأخذ بعين الاعتبار أربعين شخصا من أكثر الأشخاص قربا لوالديه. (الأهل والأقارب المقربون) والذين قد يكونون من الموتى أو الأحياء.

في هذا الصدد، يسود الاعتقاد بأن الطفل سيثبه الشخص الذي أمعن فيه النظر بشكل مطول.¹¹ إضافة إلى هذا كله، فإن الميلاد كأحد أهم المخططات في عادات دورة الحياة بالنسبة للإنسان، يشتمل على مراحل مختلفة، من الحمل إلى الوضع إلى السبوع، التسمية، تنشئة الطفل والبلوغ، والتي تتصاحب مع طقوس وممارسات متعددة. إذن سيتم التطرق إلى بعض الطقوس المعروفة في منطقة وادية بالقبائل الكبرى المرتبطة بالميلاد، الذي تندرج طقوسه ضمن طقوس مناسبات عائلية محددة.

❖ من طقوس استقبال المولود: -طقوس الولادة-

1- الوظيفة المرجعية: -علاقة الرسالة بالموضوع-

إن المجتمع القبائلي هو مجتمع ذكوري رجالي ذو نظام أبوي، إذ تعد من أهم ميزاته التمييز بين الجنسين. وبالتالي، فإن الذكر هو الفاعل الاجتماعي الوحيد القادر على ترسيخ مكانة الأم وتعزيز مركزها في بيت زوجها، فالزوج عادة ما يتخذ من مسألة ميلاد البنات دون الذكور سببا كافيا للطلاق أو تعدد الزوجات. وعليه، يظهر بوضوح ارتباط الرسالة بالموضوع "الواقع"، في ذلك الاختلاف الموجود في استقبال الطفل، من حيث أن الفتاة في الوسط التقليدي القبائلي، تمثل فردا ثانويا ومهمشة اجتماعيا، وقاصرة إلى الأبد، تحت الوصاية دائما، ويملك الرجل القوي السلطة لتعزيز هذا التهميش.

2- الوظيفة التعبيرية: -علاقة الرسالة بالمرسل-

تعتبر الأم وأفراد أسرتها من عائلة زوجها وعائلتها، وكذا صديقاتها والمقربين لها وكل فرد ذو صلة وثيقة بالعائلة، مرسلتي الرسالة في هذه الحالة.

فان كان المولود ذكرا، تظهر علاقة الرسالة بالمرسل، في ملامح الفرح والسعادة التي ستظهر على محياهم، وكذا الفخر والاعتزاز فيما يخص والدته الرضيع و حتى والده. على العكس، إن كان المولود بنتا. إذ تطغى مشاعر الحزن والحيرة على الجميع. خاصة الأم، التي ستشعر بالعجز عن الإتيان بولد ذكر.

وعليه يعتبر ميلاد البنت غير مرغوب فيه، المسألة التي تعود إلى اعتبارات اجتماعية. فالبنت لا تحافظ على الاسم العائلي ولا على ميراث الأجداد، ولا تدافع عن الشرف العائلي، كما أنها لا تستطيع التكفل بوالديها أثناء العجز لتندمج في عائلة زوجها، وتعمل على استمرارها.

3- الوظيفة الندائية: - علاقة الرسالة بالمستقبل -

عند إنجاب المرأة القبائلية لولد ذكر، فان وسطها الاجتماعي، يأتي بردود أفعال متنوعة تصب أغلبها في الفرح والسعادة، بهذا المولود الذكر الذي يعد كمواطن إضافي للسلام، وكمحارب قوي وشرس في الحرب. إذن، تقام الولائم والأفراح احتفاء بهذه المناسبة السعيدة. ويضاء القنديل، وتظل أبواب المنزل مفتوحة للمهنئين والزائرين. الذين ينوعون في هداياهم حسب إمكانياتهم، أين تعتبر حلقة "الشافريمت" * أعلى هدية تقدم للزوجين في مثل هذه المناسبة.

على العكس، إن كان المولود بنتا. إذ تغلق أبواب المنزل ويطفئ القنديل. حيث ستلقى الأم نظرات مليئة بالشفقة عليها والحزن لحالها وكذا الحيرة منها، حيث تصل تلك الحالة إلى غاية اعتبارها كأنها لم تنجب مطلقا بل وكأنها امرأة عاقر.¹²

❖ طقوس تخص الطفل الرضيع: - طقوس ما بعد الولادة -

الوظيفة الأكثر بروزا هي:

1- الوظيفة التعبيرية: - علاقة الرسالة بالمرسل -

تعتبر الأم التي أنجبت الطفل، والتي تمارس أهم هذه الطقوس المرسل، إلى جانب القابلة والساحرة. إذ تبرز العلاقة التي تربط بين الرسالة والمرسل، في تلك الملامح والمعاني التي تحملها الأم على وجهها والتي تعبر عن القلق على مستقبل ولدها والخوف من المجهول، وغموض ما سيواجهه الطفل الرضيع في حياته المستقبلية. فلا طالما شكل الغموض والخوف من المجهول الدافع الرئيسي لمختلف الطقوس.

كما تظهر ملامح الفرح والسعادة والفخر، وكذا الاعتزاز بإنجابها وتأكيد خصوبتها، المسألة التي تشكل هاجس كبير بالنسبة للنسوة القبائليات المتزوجات والذي يعتبر هو الآخر المحور الرئيسي للطقوس في المجتمع القبائلي. خاصة إذا ارتبط الأمر بإنجابها لولد ذكر، فالولد الذكر هو الذي يمنح تلك المكانة الرفيعة لوالديه، ويجعلهما يشعران بالفخر والاعتزاز، فالذكر يعبر عن حيوية الأب ورجولته الكاملة، ويعبر في الوقت نفسه عن خصوبة

الزوجة، حيث أنها لن تحقق دجما حقيقيا في المجتمع إلا بفضل الذكر، الذي يرمز إلى مفخرة العائلة و كبريائها. هذا الولد الذي سوف يحمل عن والديه ويعينهما في كبرهما، الذي سيحمل عنهما هموم الدهر و مشاغله ومسؤولياته والذي سيتكفل برعايتهما وحمايتهما. أيضا سيمكن هذا الولد من حمل لواء الأسرة ولقب العائلة، وسيشكل ضمان لاستمرارية النسل والذرية.

إضافة لذلك فالأم تكون جد حذرة من أن تصيبها عين الحسود للمكانة التي أصبحت تحتلها بين نسوة القبيلة. الحذر والقلق على صحة وليدها الرضيع أولا و على نفسها ثانيا. كما قد تتكفل القابلة أو الجدة نيابة عن الأم القيام ببعض الممارسات الطقوسية، حيث تحمل على عاتقها هي الأخرى هموم الأم القلقة على ولدها، على صحته ومكانته ومستقبله في وسط قبيلته.

خاتمة:

بتأكد من خلال هذا الطرح أن الطقوس في المجتمع القبائلي كأنساق من العلامات البالغة التشفير، تعتبر جزءا هاما من التراث القومي، من خلال العودة إلى تخليد ما محاه الزمن لأجل حفظ التراث في ذاكرة الأجيال. إضافة إلى أن الخرافات الممتزجة بالدين يجعلها أكثر قبولا في الذهن الاجتماعي. فهي حركات وانفعالات لا إرادية تظهر دون وعي أو قصد، فهي مكتسبة وراسخة في أعماق النفس، تظهر فجأة ودون إنذار. وهو ما يسجل وجود نوع من التناقض، من خلال الخلط بين الطقوس السحرية والطقوس الدينية.

كما تبين من خلال التحليل الدلالي لبعض الطقوس المعروفة ضمن المجتمع القبائلي -طقوس الميلاد، أن هذه الأخيرة تعكس عادات أضحيت راسخة في نفوس الأجيال تتوارث جيل عن جيل، حيث شكلت تراثا شعبيا يشترك فيه عامة الناس يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية، ويؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل، لأنه يجسد ماضيهم وماضي أجدادهم، ويمثل بالنسبة إليهم الإطار العام الذي يتحركون فيه.

الهوامش:

1- أحمد مومن، اللسانيات النشأة و التطور، الطبعة الرابعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 2008، ص148.

2- عبد الجليل مرتاض، اللغة و التواصل - اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي و الكتابي-، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: بدون تاريخ، ص87.

3- فايزة يخلف، دور الصورة في التوظيف الدلالي للرسالة الإعلانية - دراسة تحليلية سيميولوجية لعينة من إعلانات مجلة "الثورة الإفريقية"-، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علوم الإعلام و الاتصال، معهد علوم الإعلام و الاتصال، جامعة الجزائر: 1996، ص45.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص45-46.

5- المخطط الجاكبسوني للوظائف المرافقة للعناصر الاتصالية، ينظر: المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

6- ينظر: أحمد مومن، مرجع سبق ذكره، ص148-149.

⁷ - ينظر: المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

⁸ - رحمة بورقية، الإنجاب و الثقافة النسائية - المرأة العربية: الواقع و التصور-، الطبعة الأولى، دار المرأة العربية، القاهرة: بدون تاريخ، ص 120-121.

⁹ -Tribu des Ouadhias, Grande Kabylie-, Devulder, Rituel magique des femmes Kabyles M. extrait de la "Revue Africaine", tome GI, N^{OS} 452-453, société historique Algérienne, faculté des lettres, institut de Géographie, Alger: " 3^e et 4^e trimestres 1957", P349-350.

* عندما يولد الطفل، لا يجب على امرأة متزوجة أن تقوم بقطع الحبل السري له، وإلا فإنها ستفترق عن زوجها للأبد. وعليه تتكفل امرأة أرملة بهذه العملية. كما يتردد عندهن أن المرأة التي وضعت الحمل، تكريما منها للعمل الجيد الذي أنجزته الأرملة التي تكفلت بقطع الحبل، فهي تقول بأنها ستحملها على ظهرها للأبد، وإذا أتى يوم و كانت فيه هذه الأرملة جائعة فإنها ستطعمها.

¹⁰ - A. Hanoteau, A. Letourneux, La Kabylie et les coutumes Kabyles, Deuxième Tome, 150 éditions Bouchene, France, Paris: 2003, P

¹¹ - Germaine Laoust-Chantréaux: Kabylie côté femmes 1937-1939-, édisud, France: 1990, P139.

¹² - Radia Toualbi, Les attitudes et les représentations du mariage chez la jeune fille algérienne, ENAL, Alger: 1984, P51.

